صفاته

نحن على هذا أمام رجل لا كالرجال. رجل عبقري، أو رجل ممتاز من خاصَّة الخليقة الذين لا يعدُّون في الزمن الواحد بأكثر من الآحاد. أنقول رجل قويٌّ؟. . نعم هو رجل قويٌّ لا مراءَ. . وكلُّ عظيم فهو قويٌّ بمعني من معاني القوَّة. نعلم هذا فنعلم الشَّيء المهمَّ عنه، ولكنَّنا بعد هذا لا نعلم شيئًا مهمًّا عن صفاته وأخلاقه؛ لأن الناس من حيث القوة أقوياء وضعفاء أو متوسطون ومنحرفون إلى هنا تارة وإلى هناك تارة أخرى. أمَّا من حيث الصفات والأخلاق فهم ألوف وألوف، وهم في قوتهم أو ضعفهم أنماط لا تحصي من المناقب والعيوب، وأحرى بنا أن نقول أن القوة صفة تستفاد من جملة مناقب الإنسان وعيوبه. فهي حالة تدل عليها المناقب والعيوب، أو تدلّ عليها الصفات والأخلاق، وليست هي بالحالة التي تدلّنا على مناقب الإنسان وعيوبه وتهدينا بغير هاد إلى صفاته وأخلاقه. فإذا قلت عمر ابن الخطاب رجل قويٌّ، فما زدت على إنه رجل عبقري أو إنه رجل عظيم.

وكلُّ رجل من هذا القبيل فمعرفته ليست بالأمر اليسير، لأنه نمط لا يتكرَّر فيسهل فهمه بالقياس إلى أمثاله الكثيرين. . وقد يكون الرجل العظيم نمطًا وحيدًا في التاريخ كله لا نظير له في تفصيل أخلاقه وصفاته وإن ساواه في القدر أنداد وقرناء.

وعمر بن الخطاب مثل فذٌّ من أمثلة هذا الطراز الفريد، تفهم سرَّه فإذا هو على وفاقٍ مع جهرهِ، وتنفذ إلى باطنه فإذا هو مصدق للظاهر من سيماه. .

فهل حللنا العقدة بهذا التقريب بين الظاهر والباطن وبين الجهر والسريرة؟. .

كلا. . ولا تقدمنا بعيدًا في طريق حلها، لأننا لا نعرف هذا التقارب إلا بعد معرفة السريرة التي نبحث عنها، فلا بدَّ إذًا من البحث، ولا بدَّ إذًا من المعرفة. . فإذا وصلنا إلى الغور البعيد عرفنا ساعتئذٍ أنه لا يناقض الظاهر المكشوف. ولكن لا بدَّ من الوصول إلى الغور البعيد قبل ذاك.

لا تناقض في خلائق عمر بن الخطاب. ولكن ليس معني ذلك أنه أيسر فهما من المتناقضين، بل لعله أعضل[1] فهمًا منهم في كثير من الأحيان. فالعظمة على كل حالٍ ليست بالمطلب اليسير لمن يبتغيه، وليست بالمطلب اليسير لمن ينفذ إلى صميمه ويحتويه.

إنما الأمر الميسور في التعريف بهذا الرجل العظيم أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جدًّا لا يسترها حجاب. فما من قارئ ألـمَّ بفذلكة صالحة من ترجمته إلا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلًا، وكان رحيمًا، وكان فطنًا وكان وثيق الإيمان عظيم الاستعداد للنخوة الدينية.

فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان الوثيق صفات مكينة فيه لا تخفي على ناظر، ويبقي عليه بعد ذلك أن يعلم كيف تتجه هذه الصفات إلى وجهة واحدة ولا تتشعب في اتجاهها طرائق قددًا[2] كما

(١) أصعب.

(٢) متعددة النواحي.

يتفق في صفات بعض العظماء. بل يبقي عليه بعد ذلك أن يعلم كيف يتمم بعض هذه الصفات بعضا حتى كأنها صفة واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان. .

وأعجب من هذا في التوافق بين صفاته أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى ولا تستمدّ من ينبوع واحدٍ. ثمَّ هي مع ذلك متفقة لا تتناقص، ومتساندة لا تتخاذل، وكأنها لا تعرف التعدُّد والتكاثر في شيءٍ.

خذ لذلك مثلًا عدله المشهور الذي اتسم به كما لن يتسم قط بفضيلة من فضائله الكبرى. . فكم رافدةٍ لهذا الخلق الجميل في نفس ذلك الرجل العظيم؟. .

روافد شتي: بعضها من وراثة أهله، وبعضها من تكوين شخصه، وبعضها من عِبَر أيَّامه، وبعضها من تعليم دينِهِ. . وكلُّها بعد ذلك تمضي في اتجاه قويم إلى غاية واحدةٍ لا تنمُّ على افتراق.

لم يكن عمر عادلًا لسبب واحدٍ بل لجملة أسباب: كان عادلًا لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه، فهو من أنبه بيوت بني عديّ الذين تولُّوا السفارةَ والتحكيم في الجاهلية، وراضوا أنفسهم من أجل ذلك جيلًا بعد جيل على الإنصاف وفصل الخطاب، وجده نفيل بن عبد العزى هو الذي قضي لعبد المطلب على حرب بن أمية حين تنافرا إليه وتنافسا على الزعامة. فهو عادل من عادلين، وناشئ في مهد الحكم والموازنة بين الأقوياء. .

وكان عادلًا لأنه قويّ مستقيم بتكوين طبعه. . وإن شئت فقل أيضًا بتكوينه الموروث. إذ كان أبوه الخطاب وجده نفيل من أهل الشدة والبأس. وكانت أمه منتمة بنت هشام بين المغيرة قائد قريش في كل نضال فهو على خليقة الرجل الذي لا يحابي لأنه لا يخاف، والذي يخجل من الميل إلى القوي لأنه جبن، ومن الجور على الضعيف لأنه عوج يزري بنخوته وشممه. .

وكان عادلًا لأن آله من بني عديٍّ قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بني عبد شمس وكانوا أشدَّاءَ في الحرب يسمُّونهم لعَقَة الدم، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلَّة عددهم بالقياس إلى عددِ أقربائهم، فاستقرَّ فيهم بغض القويِّ المظلوم للظلم وحبُّه للعدل الذي مارسوه ودربوا عليه، وساعدت عِبَرَ الأيام على تمكين خليفة العدل في خلاصة هذه الأسرة، أو خلاصة هذه القبيلة، ونعني به عمر بن الخطاب.

وكان عادلًا بتعليم الدين الوراثة الشعبية، والقوة الفردية، وعبر الحوادث وعقيدة الدين في صفة العدل التي أوشكت أن تستولي فيه على جميع الصفات. .

كان عادلًا لأسباب كأنه عادل لسبب واحدٍ لقلة التناقض فيه. وربما كان تعدد الأسباب هو العاصم الذي حمي هذه الصفة أن تتناقض في آثارها لأنه منحها القوة التي تشدها كما يشد الحبل المبرم فلا تتفكك ولا تتوزع، فكان عمر في جميع أحكامه عادلًا على وتيرةٍ واحدةٍ لا تفاوت بينها. فلو تفرَّقت بين يديه مائة قضية في أعوام متباعِدَات لكنت

على ثقةٍ أن تتَّفق الأحكام كلَّما اتفقت القضايا..كأنَّه يطبعها بطابع واحدٍ لا يتغيَّر..

إلا أن الصفات إذا بلغت هذا المبلغ من القوة الرائعة لم تكد تسلم من طروء التناقض عليها، وإن سَلِمت منه بطبيعتها، لأنها تدخل في صفات البطولة التي تثير الإعجاب والمبالغة، وكلُّ بطولة فهي عرضة للمبالغات والإضافات، ومن ثَمَّ لا تسلم من تناقض الأقاويل..

وصفات عمر كلها صفات لها طابع البطولة، وفيها دواعي الإغراء بالإعجاب والمبالغة. وممن؟. . من الأصدقاء المصدقين لأنهم لا يهتمون بقصد السوء وهم في الواقع أولى بالاحتراس من الخصوم المتهمين. . فمن هنا يجيءُ التناقض لا من طبيعة الصفات التي تأباه.

فالعدل مثلًا هو المساواة بين أبعد الناس وأقربهم في قضاء الحقوق وإقامة الحدود.. وليس أقرب إلى الحاكم من ابنه.

فإذا سوَّى الحاكم بين ابنه وسائر الرعيَّة، فذلك عدل مأثور يقتدى به الحاكمون. . ولقد سوَّى عمر بين أبنائه وسائر المسلمين، فبلغ بذلك مبلغ البطولة في هذه الصفة النادرة بين الحكام. .

وذلك كافٍ في تعظيم قدره. . لا حاجة بعده إلى مزيد. .

إلا إنها صفة من صفات البطولة التي تروع وتعجب وتملأ النفس بالرغبة في التحدث بها والأطناب في أحاديثها. فهي لا تكفي المبالغين حتى يجعلوا عمر مقيمًا للحد على ابنه، مشتدًّا في عقوبته اشتدادًا لا يسوى فيه بينه وبين غيره، ثمَّ لا يكتفي المبالغون بهذا حتى يموت الوالد قبل استيفاء العقوبة، فيمضي عمر في جلده وهو ميت لا تقام عليه

الحدود! ومن اعتدل من المبالغين لم يذكر الموت وإتمام العقوبة وذكر لنا أن الولد مات بعد ذلك بشهر من مرض الضرب الذي ثقل عليه، وعجز من احتماله. .

نعني بما تقدَّم قصَّة عبد الرحمن بن عمر في مصر، وهي كما رواها عمرو بن العاص والي مصر يومئذٍ حيث قال: ((. . دخلا- عبد الرحمن ابن عمر وأبو سروعة- وهما منكسران، فقالا: أقم علينا حدَّ الله، فإنَّا قد أصبنا البارحة شرابًا فسكرنا، فزبرتهما[1] وطردتهما، فقال عبد الرحمن: إن لم تفعل أخبرت أبي إذا قدمت عليه. . فحضرني رأي وعلمت أني إن لم أقم عليهما الحدّ غضب عليَّ عمر في ذلك وعزلني وخالفه ما صنعت، فنحن على ما نحن عليه إذ دخل عبد الله بن عمر، فقمت إليه فرحبت به وأردت أن أجلسه في صدر مجلسي فأبى عليَّ وقال: أبي نهاني أن أدخل عليك إلا أن لا أجد من ذلك بدًا. أن أخي لا يحلق على رؤوس الناس. فأما الضرب فاصنع ما بدا لك)).

قال عمرو بن العاص: وكانوا يحلقون مع الحدِّ فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحدَّ، ودخل ابن عمر بأخيه إلى بيت من الدار فحلق رأسه ورأس أبو سروعة، فوالله ما كتبت إلى عمر بشيء مما كان حتى إذا تحينت كتابه إذا هو نظم فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاص: (. . . عجبت لك يا ابن العاص ولجرأتك على خلاف عهدي. . فما أراني إلا عازلك فمسيء عزلك تضرب عبد الرحمن

(١) نهرتهما.

في بيتك وتحلق رأسه في بيتك: وقد عرفت أن هذا يخالفني؟.. إنما عبد الرحمن رجل من رعيَّتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين.. ولكن قلت ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت ألا هوادة لأحدٍ من الناس عندي في حقٍّ يجب لله عليه، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءةٍ على قتب حتى يعرف سوء ما صنع))..

قال: ((فبعثت به كما قال أبوه وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه، وكتبت إلى عمر كتابًا أعتذر فيه وأخبره أني ضربته في صحن داري، وبالله الذي لا يحلف بأعظم منه أني لأقيم الحدود في صحن داري على الذِّميِّ والمسلم، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر)).

قال أسلم: ((فقدم عبد الرحمن على أبيه فدخل عليه وعليه عباءة ولا يستطيع المشيَ من مركبه. فقال: يا عبد الرحمن فعلت كذا؟. فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحدّ مرَّة. فلم يلتفت إلى هذا عمر وزَبَره. فجعل عبد الرحمن يصيح: أنا مريض وأنت قاتلي!. فضربه وحبسه، ثمَّ مرض فمات رحمه الله)).

فهذه قصة تتوافق أخبارها ومن رويت عنهم، فلا نستغربها في جميع تفصيلاتها إلى حين تطرأ عليها المبالغة التي تتسرب إلى كل خبر من أخبار البطولات المشهورة، وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التي يوجبها الدين ولا تقبلها الفطرة الإنسانية، فيقيم عليه الحد وهو ميت، أو يعرضه للموت من أجل حدٍّ أقيم.

هذا هو الغريب الذي استوقفنا فأنكرناه، ومضينا في تمحيصه فطابق التمحيص ما قدرناه. أما سائر القصة فلا غرابة من كل نواحيه،

بل هو من القصص التي يستبعد فيها التلفيق والاختراع. . إلا أن يكون الملفَّق من حذاق الرواة ومهرة الوضَّاع.

ولو كان المصدر واحدًا معروفًا بالحذق في القصص لحسبناها من وضعه وتلفيقه. ولكنَّها سمعت من غير مصدرٍ موثوقٍ به، فهي أقرب إلى الواقع فيما يشبه ويجري مجراه.

فعبد الرحمن بن عمر يذهب إلى الوالي لأنه شرب شيئًا ظنَّه غير مسكر فإذا هو قد سكر منه، ولا مناص من إقامة الحدِّ عليه وإلا رفع الأمر إلى أبيه. . هي شنشنة عمرية لا لبس فيها، وهو ابن عمر لا مراء.

والوالي. . من الوالي؟. . عمرو بن العاص الذي لا خفاء بدهائه ولا ببعد حسابه، فهو يتريث بادئ الأمر ويحاول أن يصرف الفتي إذا طاب له الانصراف دون أن يقيم الحد عليه.. وهي أيضًا شنشنة لا غرابة فيها. فمن يدري؟. أَلَّا يجوز أن يصبح هذا الفتي أخًا للخليفة أو مدبرًا للسلطان معه في يوم غير بعيد؟

والخليفة يدري بالأمر فيهوله، ويستكبر أن يخيفه عنه وإليه فلا يصل إليه نبأه من قبله، وهو ما هو في تحرُّجه من تبعةٍ يحملها غافلًا عنها، لحرص الولاة على تحرِّي هواه وابتغاء رضاه، فيشفق أن يقع ابنه في معصية ثم ينجو من الحدِّ الذي شرعه الدين، وهو مسؤول عن الولاة والحدود، ومسؤول عن ذويه الأقربين قبل سائر المسلمين.

كلّ أولئك كما قلنا سائغ لا غرابة فيه.

أما الغريب من عمر حقًّا في معدلته وعمله بالدين وكراهته رياء الناس فهو أن يتمَّ على ابنه الحدُّ وهو ميِّت. أو يشتدّ في إقامة الحدِّ على ابنه حتى يتلف أو يصاب بما يتلفه بعد أيام.

فلا موجب لذلك من حكم دِين ولا اتِّقاء تبعة.

وهو مع هذا مخالف لما عرف عن عمر في إقامة الحدود خاصة وفي مثل هذه العقوبة بعينها.

فقد جيءَ له يومًا بشارب سكران وأراد أن يشتدَّ عليه فقال له: لأبعثنَّك إلى رجل لا تأخذه فيك هوادة. فبعث به إلى مطيع بن الأسود العبدي ليقيم عليه الحدّ في غده، ثمَّ حضره وهو يضربه ضربًا شديدًا، فصاح به: قتلت الرجل. كم ضربته؟ قال: ستين، قال: أقص عنه بعشرين. أي ارفع عنه عشرين ضربة من أجل شدَّتك عليه فيما تقدَّم من الضربات..

وقد كان من دأبه أن يتريث في إقامة الحدود، حتَّى لا يؤثر- كما قال- تعطيلها في الشبهات على أن يقيمها في الشبهات.

ومرَّ بقوم يتبعون رجلًا قد أُخذَ في ريبةٍ فقال: لا مرحبًا بهذه الوجوه التي لا ترى إلا في الشرَّ.

وربما غضب على الوالي من كبار الولاة لغلوِّه في تقاضي الحدود على المعاصي كما فعل في إنذاره الشديد لأبي موسي الأشعري حين جلد شاربًا وحلق شعره وسوَّد وجهه ونادى في الناس ألا يجلسوه ولا يؤاكلوه. فأعطي الشاكي مائتي درهم وكتب إلى أبي موسي: ((لئن عدت لأسودن وجهك ولأطوفن بك في الناس)) وأمره أن يدعو

المسلمين إلى مجالسته ومؤاكلته وأن يمهله ليتوب، ويقبل شهادته إن تاب.

وتفقد رجلا يعرفه فقيل له أنه يتابع الشراب، فكتب إليه: ((أني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذو الطول، لا إله إلا هو، إليه المصير)) فلم يزل الرجل يرددها ويبكي حتى صحت توبته وأحسن النزع وبلغت توبته عمر، فقال لمن حضروا مجلسه: ((هكذا فاصنعوا. إذا رأيتم أخًا لكم زلَّ زلةً فسدِّدوه ووفِّقوه وأعدوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه)).

وقد تكرَّر منه إعفاء الزانيات من الحدِّ لشبهة القهر والعجز عن المقاومة، وتكرَّر منه الإعفاء لمثل هذا العذر في غير ذلك من الحدودِ.

فلم يكن عمر بالسريع المتعطش إلى إقامة الحدِّ، ولم يعرف عنه قط أنه أقام حدًّا وله منوحة عنه..

وفي قصة ولده منادح شتَّى ترضيه على شدة تحُّرجه وتحرِّيه. ثمَّ لا حاجة بمثله إلى رياء العدل فيجور على ابنه ويسرف في القسوة عليه، ليقال أنه سوَّى بينه وبين غيره.

وأصح من ذلك، أن نأخذ برواية عبدالله بن عمر وهو أحقُّ الناس بالمبالغة في عدل أبيه لو كانت المبالغة مما يجمل بمثله، فقد روى هذه القصة فقال ما خلاصته: أنَّ أخاه عبد الرحمن وأبا سروعة عقبة بن الحارث سكرًا، فلما أصبحا انطلقا إلى عمرو بن العاص وهو أمير مصر فقالا: طَهِّرنا فإنا سكرنا من شراب شربناه!. . ولم أشعر أهمها أتيا عمرو ابن العاص فقلت: والله لا يحلق اليوم على رؤوس الأشهاد. ادخل

أحلقك، وكانوا إذ ذاك يحلقون مع الحدِّ فدخل معي الدار فحلقت أخي بيدي، ثم جلدهم عمرو بن العاص. فسمع عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو أن ابعث إلى بعبد الرحمن بن عمر على قتب. . ففعل ذلك عمرو. فلما قدم عبد الرحمن على عمر جلده وعاقبه من أجل مكانه منه. ثم أرسله، فلبث شهرًا صحيحًا ثم أصابه قدره فتحسب عامة الناس أنه مات من الجلد ولم يمت منه.

هذه رواية عبدالله عن أبيه وأخيه، ولو كان الأمر مبالغة في عدل عمر لكان الابن أحقَّ الناس بهذه المبالغة، أو كان رحمة بعبد الرحمن لكان الأخ أحق الناس بهذه الرحمة. ولكنه أمر صدق لا نقض فيه ولا زيادة.

فالذي يجوز لنا أن نقبله من هذه القصَّة هو الجانب الذي يستقيم مع خلائق عمر ولا يناقضها. وهو العدل الصحيح في محاسبة ولده على ذنبه ولا زيادة، ولاسيِّما الزيادة التي لا تستقيم مع عدله ورحمته على السواء. وكلا العدل والرحمة من صفاته الأصيلة فيه.

نعم كانت الرحمة من صفاته التي وازنت فيه العدل أحسن موازنة. . فما عهد فيه أنه أحبّ العدل لغضِّه من الأقوياء المعتدين كما كان يحبُّه لنجدته الضعيف المعتدي عليه.

ولا يمنعن ذلك أنه كان خشن الملمس صعب الشكيمة جافيًا في القول إذا استغضب واستثير. فليست الخشونة نقيضًا للرحمة، وليس النعومة نقيضًا للقسوة. وليس الذين يستثارون ولا يستغضبون بأرحم الناس. فقد يكون الرجل ناعمًا وهو منطوٍ على العنف والبغضاء،

ويكون الرجل خشنًا وهو أعطف خلق الله على الضعفاء، بل كثيرًا ما تكون الخشونة الظاهرة نقابًا يستتر به الرجل القوي فرارًا من مظنة الضعف الذي يساوره من قبل الرحمة. فلا تكون مداراة الرقة إلا علامة على وجودها وحذرًا من ظهورها..

ومن المألوف في الطبائع أن الرجل الذي يقسو وهو معتصم بواجب قلما ينطبع على القسوة، ولاسيِّما إذا كان الواجب عنده شيئًا عظيمًا يزيل كل عقبة ويبطل كلَّ حجَّةٍ ويقطع كلَّ ذريعةٍ. فهو إنما يعتصم بالواجب في هذه الحالة كما يعتصم الإنسان بالحصن المنيع كلما خشي عليه طريقه، ولولا خوف الرحمة أن تغلبه لما كانت به حاجة إلى ذلك الحصن المنيع، ولاسيِّما حين يكون حصنًا بالغًا في المنعة كما كان الواجب عند عمر بن الخطاب.

أرأيت هذا الرجل الصارم الحازم قاسيًا قطّ إلا باسم واجب أو في سبيل واجب؟. كلا. . وما نذكر أننا سمعنا رواية واحدة من روايات شدته إلا لمحنا الواجب قائمًا إلى جانبها يزكيها ويسوغها. ومن كانت القسوة طبعًا فليه فما هو بحاجة إلى واجب يغريه بالقسوة، بل هو في حاجة إلى واجبات عدة تنهاه عنها وتغريه باجتنابها.

وليس قصاراه في هذا الخلق أنه غير قاس، أو أن الرحمة كانت تنفذ إلى قلبه كما طرقته واتخذت سبيلها إليه، فإن نصيبها من الرحمة قد كان أوفى جدًّا من ذاك، وكانت هذه الفضيلة من فضائله الأصيلة فيه لا تكاد تفارقه في عامَّة حياته، حتى ليصحّ أن تُضرب الأمثال بعدله. . وأن يُقرن معه لقب العدل بلقب الرحيم.

obeikandi.com

وفي صدد الكلام عن الخليفة الإسلامي الكبير قد يهمنا خلق الرحمة فيه خاصَّة؛ لأن شأنها في التقريب بينه وبين الإسلام غير قليل.

فمن المحقَّق أنَّ رقَّته للمسلمين وللدِّين الذي يدينون به كانت مقرونة في أول الأمر برحمته لامرأتين ضعيفتين رآهما في حالة من الشكوى تلين القلب وتكف الغضب وتمسح جفوة العناد والبغضاء.

قالت أم عبد الله بنت حنتمة: لما كنا نرتحل مهاجرين إلى الحبشة أقبل عمر حتى وقف عليَّ، وكنا نلقي منه البلاء والأذى والغلظة علينا، فقال لي: إنه الانطلاق يا أم عبد الله! قلت: نعم.. والله لنخرجنَّ في أرض الله. . آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجًا. فقال: صحبكم الله، ورأيت منه رقة لم أراها قط.

وحديثه مع أختِهِ فاطمة في سبب إسلامه مشهورٌ متواتر في أوثق الروايات.. فإنه ضربها حين علم بإسلامها فأدمي وجهَهَا، فأدركتها الثورة الخطابية التي فيها منها بعض ما فيه، وقالت وهي غضبي: يا عدوَّ الله، أتضربني على أن أوحِّد الله؟ قال غير متريِّث: نعم! فقالت: ما كنت فاعلا فافعل. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمَّدًا رسول الله. لقد أسلمنا على رغم أنفك.

ويذكر رواة القصَّة التي اتفقت عليها روايات كثيرة أنه ندم وخلي عن زوجها- بعد أن صرعه وقعد على صدره- ثمَّ انتحي من المنزل وطلب الصحيفة التي كتبت فيها آيات القرآنِ، وخرج من ثمَّة إلى حيث لقي النبيَّ، فأعلن شهادة الإسلام على يديه..

وغير عسير علينا أن نرقب طوية عمر ونرى كيف كانت تتمشي فيها الخوالج والخطرات وهو يتحدث إلى المرأتين: بنت حنتمة وبنت الخطاب.

فهذا بطل مناضل يشحذه النضال إذا لقي أنداده من الأبطال، وأقرانه من الرجال: الإساءة تتبعها الإساءة والتحدي يعقبه التحدي، ولكما قوبل البطش بمثله تضرَّمت سورة الغضب وثارت نحيزة القتال، ومضي العداء شططًا لا اعتدال فيه ولا نكوص عنه حتى ينكسر عدو من العدوين. فلا موضع هنا لرحمة ولا سبيل لها إلى ظهور. وتتمادى الشرَّة على ذلك شهورًا وسنين، وكأنَّ الرحمة لم تُخلق في النفس ولم يسمع لها في حنايا الصدور صوت.

أما المرأة الشاكية، أو المرأة الدامية، إذا واجهت ذلك البطل القوي فما حاجته إلى قوته ونضاله؟.. وما أحرى تلك القوة أن تهدأ في مكانها كأنها هي الخليقة الخفية التي لم تخلق وليس لها صوت مسموع، وما أقربها إذن إلى أن تخجل من إيذائها وتندم على قسوتها وتثوب إلى التوبة والخشوع وهما من لباب الدين.

إن العرب يشتقون الرحمة من الرحم أو القرابة، وهو اشتقاق عميق المغزى يهدينا إلى نشأة هذه الفضيلة الإنسانية العالية، ومودة عمر بن الخطاب لرحمه وذوي قرباه لا تنحصر دلائلها في رحمته لأخته الشاكية الثائرة. فإن المرأة قد ترحم لضعفها في موقف شكواها ويأسها ولو كانت بعيدةَ الآصرةِ منقطعةَ النَّسَب. إنَّما يدلُّ على مودَّته لذوي قرباه وذلك الحبّ الذي كان يضمره لأبيه بعد موتهِ، مع شدَّته عليه

وغلظته في زجره وتأديبه. . فكان يطيل الحديث عنه، وينقل أخباره، ويقسم باسمه. وظلَّ يقسم باسمه وهو كهل إلى أن نهي المسلمون عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية. وندر بين الناس من أحبَّ إخوته كما كان عمر يحبّ أخاه زيدًا في حياته وبعد مماته، فما شاء أحد أن يبكيه إلا ذكره له ففاضت شؤونه، وجعل بعد قتله يتأسي بمن أصيب مثل مصابه ولا يرى أحدًا فقد أخاه إلا التمس الأسوة عنده.

حكي أحمد بن عمران العبدي عن أبيه عن جدِّه قال: ((صليت مع عمر بن الخطاب الصبح. فلما انفتل[1] من صلاته، إذا هو برجل قصير أعور متنكبًا قوسه وبيده هراوة فسأل: من هذا؟. فقيل: متمِّم بن نويرة. فاستنشده رثاءه لأخيه فأنشده حتى بلغ إلى قوله:

وكنَّا كندماني جذيمة حقبة — من الدهر حتى قيل لن يتصدَّعَا

فلما تفرَّقنا كأني ومالكًا — لطولِ افتراقٍ لم نَبِتْ ليلةً معَا

فقال عمر: هذا والله التأبين: يرحم الله زيد بن الخطاب!. إني لأحبُّ أني لو كنت أقدر على أن أقول الشعر لبكيته كما بكيت أخاك. ثم سأله: ما أشدَّ ما لقيت على أخيك من الحزن؟ فقال: كانت عيني هذه ذهبت فبكيت بالصحيحة فأكثرت البكاء حتَّى أسعدتها العين الذاهبة وجرت بالدمع. فقال عمر: إن هذا لحزن شديد. ما يحزن هكذا أحدٌ على هالِكٍ. قال متمِّم: لو قتل أخي يوم اليمامة كما قتل أخوك ما بكيت

(١) خرج.

أبدًا. فصبر عمر، وتعزَّى عن أخيه وقال: ما عزاني أحد عنه بأحسن مما عزيتني. .)).

هذا هو عمر من وراء النقاب.

فما كان أحوج رضي الله عنه إلى ذلك النقاب، وما أقلّ الغرابة في ذلك النقاب من الشدَّة والهيبة حين ينفذ الناظر إلى ما وراءه فيرى مكان الحاجة إليه.

وقد رحم الرجل أهل الرحمة والقربة ويجفو غيرهم من الناس، ولكن الرحمة الأصيلة في الطباع تسوَّى في المودَّة ولا تفرَّق، وتخلق هي سبب الرحمة ولا تنتظر حتى تفرضها عليها القرابة بأسبابها. فكان عمر كما روى ((الحسن)) يذكر الصديق من أصدقائه بالليل فيقول: يا طولها من ليلةٍ!. فإذا صلَّى الغداة غدا إليه. فإذا لقيه التزمه أو اعتنَقَه.

وكان بكاء طفل يزعجه ويقطع عليه صلاته وينغِّص عليه ليله.

قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلَّي فاقترح على عبد الرحمن بن عوف أن يذهبا ليحرساهم من السرق، ثمَّ باتا يحرسان ويصليان. فسمع بكاء صبيٍّ. فتوجه نحوه وقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيِّك. . ثمَّ عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فرجع إلى أمِّه كرَّةً أخرى، ثمَّ سمع بكاءه آخر الليل فقال لأمِّه. ويحك!. أني لأراك أم سوء. . وما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: يا عبد الله! قد أبرمني منذ الليلة إلى أربعة عن الفطام، فسألها: ولِـمَ؟. . فقالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم؟. . فسألها: وكم له، فلمَّا علم أنها فطمته دون سنِّ الفطام أمر مناديًا فنادى ألا تعجلوا صبيانكم عن الرضاع فإنَّا نفرض لكلِّ مولود في الإسلام.

وقصَّته مع الصبية الجياع مشهورة، ولكنها تعاد لأنها أحقُّ قصَّةٍ بأن تعاد..

قال أسلم: خرجنا مع عمر رضي الله عنه إلى حرة واقم حتى إذا كنا بضرار[١] إذا نار تؤرث فقال: يا أسلم إني أرى هاهنا ركبانًا قصر بهم الليل والبرد. . انطلق بنا!..

((فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأةٍ معها صبيان وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون. فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء. وكره أن يقول: يا أصحاب النار. فأجابته امرأة: وعليكم السلام!. فقال: أأدنو؟. فقالت: ادْنُ بخير أو دَعْ. . فدنا منها فقال: ما بالكم؟. قالت: قصر بنا الليل والبرد.. قال: وما بالُ هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع!. قال: وأيُّ شيءٍ في هذه القدر؟. قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا.. والله بيننا وبين عمر! فقال: أي رحمك الله، وما يدري عمر بكم؟. فقالت: يتولَّى أمرنا ثمَّ يغفل عنَّا؟ فأقبل عليَّ فقال: انطلق بنا.

((فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق. فأخرج عدلًا من دقيق وكبه من شحم!. وقال: أحمله عليَّ!. قلت: أنا أحمله عنك.. قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أمَّ لك!.

((فحملته عليه، فانطلق معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا فجعل يقول لها: ذري عليَّ وأنا أحر لك[٢].

---

(١) مكان علي مقربة من المدينة.

(٢) أي اتخذ لك حريرة وهي الحساء من الدقيق والدسم.

((وجعل ينفخ تحت القِدْرِ. وكانت لحيته عظيمة، فرأيت الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ لهم. ثم أنزلها وأفرغ الحيرة في صفحة وهو يقول لها: أطعميهم وأنا أسطح لهم- أي أبرده!. ولم يزل حتى شبعوا وهي تقول له: جزاك الله خيرًا. كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين)).

وأمثال هذه القصة في سيرة عمر كثير، لا يقال إنها هي ومثيلاتها من الشعور بالتبعية وليست من الرحمة؛ لأن العهد بالشعور بالتبعية أن يأتي من الرحمة، وليس العهد بالرحمة أن تأتي من الشعور بالتبعة.

كذلك لا يقال إنه قد كان يطيع أمرًا سماويًّا تحرَّكت له نفسه أو لم تتحرَّك. فإن النفس التي تتحرَّك للأمر السماويِّ هي النفس التي فيها الخير ولها رغبة فيه، وقلَّما تشفق من عقاب السماء إلا أن تشعر بألم الظلم ومبلغ استحقاقه للعقاب.

على أن عمر كان يرحم في أمور يحول فيها النفور الدينيّ دون الرحمة عند كثيرين..

فمن ذلك أنه رأى شيخًا ضريرًا يسأل على باب، فلمَّا علم أنه يهوديّ قال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟.. قال: اسأل الجزية والحاجة والسنَّ! فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله. فأعطاه ما يكفيه ساعتها، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول: انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبتَه ثمَّ نخذله عند الهِرَم. إنَّما الصدقات للفقراء والمساكين، والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب. ووضع عنه الجزية وعن ضربائه.

فهنا علمته الرحمة كيف يطيع الدِّين، ولن يطيع الدِّين هكذا إلا رحيم.

وقد فرض عمر لكلِّ مولودٍ لقيط مائة درهم من بيت المال، كما فرض لكلِّ مولودٍ من زوجين، وهي رحمة قد يحجبها النفور من الزنا وثمراته في نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون.

بل كان يرحم كل مخلوق حيٍّ حتى البهيم الذي لا يبين بشكاية، فروى المسيب ابن دارم أنه رآه يضرب رجلًا ويلاحقه بالزجر لأنه يحمِّل جمله ما لا يطيق.

وكان يدخل يده في عقرة البعير الأدبر ليداويه وهو يقول: إني لخائِفٌ أن أسأل عمَّا بك. ومن كلامه في هذا المعني: لو مات جدي بطفّ الفرات لخشيت أن يحاسب به الله عمر.

وإنَّه لشعور بالتبعية عظيم.

لكنَّه كما أسلفنا لن ينبت في قلب كلِّ أمير عليه تبعَة، إلا أن يكون به منبت للرحمة عظيم.

فنحن إذًا بإزاء صفةٍ كبيرةٍ إلى جانب صفةٍ كبيرةٍ: الرحمة إلى جانب العَدلِ، وكلتاهما من البروز والوثاقة وعمق القرار بمثابة الذي يدلُّ على صاحبه، أو بمثابة العنصر الأصيل الذي يلازمه ويلابسه ولا يفارقه في جملة أعماله.

ومن خصائص عمر أنَّه كان على هذا الشأن في جميع صفاته المشهورة، خلاقًا للمعهود في الصفات الغالبة بين الناس من المحامد

كانت أو العيوب. إذ قلَّما يوسم إنسان بأكثر من صفة غالبة بهذه المثابة من التأصل والبروز. فهو عادل أو رحيم أو غيور أو فطن أو وثيق الإيمان، ثمَّ تطغي إحدى هذه الصفات على سائرها فلا تعطيها إلى جانبها مكانة رسوخ واستقرار.

على غير هذا العهد، كان عمر في جميع صفاته الكبيرة التي ذكرناها، فكانت كلُّ صفة منها في قوتها ورسوخها تكفي للغلبة على شخصية تنسم بها ولا تذكر بغيرها، وأنه ليتصف بها فتأخذ من سماته ومعالمه ما يخصصها به ولو كانت من الصفات القومية الشائعة في أبناء جلدته جميعًا، فيخيل إليك أنها سمة مميزة له لم توجد في غيره.

فأحرار العرب كلهم غيور. ولكنك إذا قلت: (العربي الغيور) فكأنما سمَّيت عمر بن الخطاب؛ لأنه طبع هذه الصفة القومية بطابعه الذي لا يشبهه فيه غيره، فكان الغيور بين الغيورين.

قال أكبر أصدقائه وأكبر العارفين به محمد عليه السلام: (إن الله غيور يحب الغيور. وإنَّ عمر غيور).

وتحدث إلى صحبه يومًا وعم فيهم فقال: ((بينا أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضَّأ إلى جانب قصر. فقلت: لمن هذا القصر؟. فقالوا: لعمر. فذكرت غيرته فوليت مدبرًا)) فبكي عمر، وقال كالمعتذر: ((أعليك أغار يا رسول الله؟..))

وكانت هذه الغيرة معروفة مخشيَّة بين جميع من يعرفونه ويسمعون بطابعه، والنساء من باب أولى يعرفونها ويعهدونها ويتَّقينها كما لم يتَّقينها قطُّ من غيره.

استأذن على النبي يومًا وعنده نساءٌ من قريش يكلِّمْنه ويستكثرنه عالية أصواتهنَّ، فلمَّا استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب.

فدخل والنبي يضحك..

قال عمر: أضحك الله سنَّك يا رسول الله.. كأنه يسأله عن سبب ضحكه. فقال عليه السلام: عجبت من هؤلاء اللاتي كنَّ عندي لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب.

قال عمر: فأنت يا رسول الله كنت أحقَّ أن يَهَبن..ثمَّ التفت إليهن يقول: أي عدوات أنفسهم!.. أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ؟.

قلن- ولا يخذل المرأة لسانها في هذا المقام: نعم أنت أغلظ وأفظُّ من رسول الله!

وحسبك من غيرته أنه هو الذي أشار على النبي ﷺ بحجاب أمَّهات المسلمين، وكان يرى إحداهنَّ في الظلام ذاهبَـةً لبعض شأنها فيقول لها: عرفتك يا فلانة!..ليريها أنها في حاجةٍ إلى مزيدٍ من التحجُّب. وقد ضجرت إحداهنَّ منه لهذا فقالت له: وأنَّك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا؟.

على أن الغيرة في ابن الخطاب لم تكن غيرة مقصورة على المرأة وكفي، بل غيرته على المرأة لم تكن إلا شطرًا من غيرته على كل حرم وحوزة. فمن هذه الغيرة العامة سياسته العربية التي كانت تصد الغرباء عم جزيرة العرب كأنها الحرم الموصد، ومنها غيرته على الزيِّ العربيّ والشمائل العربية، ومنها غيرته على العقيدة وحدود الشريعة، وغيرته على كلِّ حقٍّ يحميه غيور..

obeikandi.com

والأحاديث عنه في هذه الخصلة تتعدَّد في معارض شتَّي، كما تعدَّدت أحاديث عدله ورحمته وكلُّ صفة بارزة فيه. فشأنُ هذه الصفات أن يظهرن أبدًا حيث ظهر له قول أو عمل، لأنهنَّ أصيلات مطبوعات يختلطن بكلِّ ما عمل وقال..

إلا أنك تقرأها جميعًا فتخرج منها بأثر واحدٍ لا اختلافَ فيه.

ذلك أنَّ عمر كان يغارُ على حقٍّ، ولا يغار من أحدٍ، ولا ينفس على ذي نعمةٍ.

فإذا قيل لك أن عمر قد غار فلن يخطر لك أن تسأل: ممن كانت غيرته؟. وإنما يخطر لك أن تسأل في كل مرَّة: علام غار؟ ولأي شيء كان يغار؟

فهو يغار على حقٍّ، أو يغار على عرض، أو يغار على دين أو يغار على صديق أو صاحب حرمة، ولا يغار من هذا أو ذاك لنعمة أصابها هذا أو ذاك. .

إنما كان يغار على شيء يحميه ويعلم من نفسه القدرة على حمايته، فهي غيرة من يريد الحماية لغيره، ولا يريد انتزاع الخير لنفسه أو غلبة إنسان على حظِّه.

رجل قوي، جياش الطبع، شديد الشكيمة، مؤمن بالحقِّ وحرماته، قادِر على تقويم من يحيد عنها ويجترئ عليها.. فإن لم يكن هذا غيورًا، فمن يكون الغيور؟

obeikandl.com

وقل في ذكائه وفطنته وألمعيَّة ذهنه ما تقول فيما اشتهرَ به من صفات العدل والرحمة والغيرة، وإن كانت هذه الصفة أحوج منهنَّ إلى الشرح والتحليل..

فبعض المستشرقين الذين أثنوا عليه قد عرضوا لأمر تفكيره، فوصفوه بأنه محدود التفكير أو أنه يأخذ الأمور بقياس واحد.

ونحن لا نقول أن عمر رضي الله عنه خلق بذهن عالم بحاثة منقطع للكشف والتنقيب، ولا أنه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر في مناحي الظنون والفروض، ولا أنه خلق بذهن منطيق يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين. فالواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه، وأنه كان معنيًا بالعمل قبل عنايته بالنظر أو الفرض والتقدير، ولكن الفرق بعيد بين هذا وبين الفكر المحدود والنظر الذي يقيس الأمور بقياس واحد.

فعمر كانت له فطنة الرجل العليم بنقائض الأخلاق وخبايا النفوس، ولم يحكم عليها قطّ كأنه ينظر من جانب واحدٍ أو يطبعها في تفكيره بطابع واحدٍ. بل علم الدنيا وعلم كيف يتقلَّب الإنسان، وراح في عمله هذا يراقب الناس مراقبة الحذور، ويقيم عليهم الأرصاد إقامة الرجل الذي لا يفوته أن ينتظر منهم من خير وشرٍّ وقوَّة وضعف وصلاح وفساد.

وكفي من كلماته الدالة عليه أن تذكر أنه كان يحب أن يعرف الشر كما يعرف الخير، لأن ((الذي لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه)) وأنه كان يحب أن يعرف الأعذار كما يعرف الذنوب حيث يقول: ((أعقل

الناس أعذرهم للناس)) وأنه هو القائل: ((احترسوا من الناس بسوء الظن)) وهو القائل مع ذاك: ((أظهروا لنا حسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر)). . يوفق في هذين القولين بين سهر الحاكم الذي لا ينبغي أن تخفي عليه خافية وبين عدل القاضي الذي لا ينبغي أن يحكم بغير بيِّنة ظاهرة.

بل لو كان عمر بن الخطاب محدود التفكير ينظر إلى الأمور من جانب واحدٍ لما كثرت مشاورته للكبار والصغار والرجال والنساء مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدَّد، وأنَّ للأمور وجوهًا لا تنحصر في الوجه الذي يراه، وكثيرًا ما قال: ((أخوف ما أخاف عليكم إعجابُ المرءِ برأيه))، وليس استطلاع الآراء ولا الخوف من الإعجاب بالرأي شيمة محصور التفكير ضيِّق المنافذ إلى الحقيقة.

وقد عاشره أناس من الدُّهاة فخبروه وحذَّروه! قال المغيرة بن شعبة لعمرو بن العاص: ((أأنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئًا فيلقنه عنك؟ والله ما رأبت عمر مستخليًا بأحد إلا رحمته كائنًا من كان ذلك الرجل. وكان عمر والله أعقَلَ من أن يُخدع وأفضل من أن يَخدع. .))

إنَّما كان عمر كما وصف نفسه: ((ليس بالخبِّ ولكن الخبَّ لا يخدعه)) وهذا هو الحد الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء المحمود والدهاء المذموم، أو بين الفهم الصحيح والخبث القبيح، فهناك فطنة تسيء الظن لأنَّها تعرف الشرور التي في طبائع الناس، وفطنة تسيء الظن لأنها تشعر شعور السوء، والفرق بينهما عظيم الفرق بين الخير والشرِّ والمحمدة والمذمَّة. فالفطنة الأولى معرفة حسنة والفطنة الثانية

خلق رديء، وإنما كان عمر بالفطنة الأولي معصومًا من أن يخدع أو ينخدع لغيره، وهذا هو الحد القوام الذي لا نقص فيه من جانبه.

وكانت له في استيحاء الخفايا قدرة تقرب من مكاشفة الغيب لولا أنها تستند إلى التقدير الصحيح والظن المدعوم بالخبرة، وحكاية واحدة من هذا القبيل تُغني عن حكايات، وهي حكايته مع المغيرة الذي استكثر على عمرو بن العاص أن يوحي إلى عمر بمراده وتتداهى عليه..

فقد همَّ عمر رضي الله عنه بأن يعزل المغيرةَ عن العراق، ويولي جبير بن مطعم مكانه، وأوصي جبيرًا أن يكتم ذلك ويتجهَّز للسفر. فأحسَّ المغيرة وسأل جليسًا له أن يدس امرأته وهي مشهورة بلقط الأخبار حتى سميت ((لقاطة الحصا)) لتستطلع النبأ من بيت جبير. وذهبت إلى بيته فإذا امرأته تصلح أمره، فسألتها: إلى أين يخرج زوجك؟. قالت: إلى العمرةِ! قالت: لقَّاطة الحصَا. وذهب المغيرة إلى عمر ففاتحه بما عَلِمَ وهو يقول له: بارك الله لأمير المؤمنين في رأيه وتوليته جبيرًا! فلم يعجب عمر من وقوفه على السرِّ بل قال: كأني بك يا مغيرة قد فعلت كيت وكيت- كأنما سمع ورأى- وأنشدك الله هل كان كذلك؟ قال المغيرة: اللهمَّ نعم. ثمَّ صعد عمر على المنبر ونادى في الناس: أيها الناس!. من يدلُّني على المخلط المزيل النسيج وحده؟ فقام المغيرة فقال: ما يعرف ذلك في أمتك أحد غيرك!. فأبقاه على ولايته ولم يزل وليه على العراق حتى مات.

وإنَّما كانت مجاراته للداهية من هذا القبيل إعجابًا بحصافته لا انخداعًا بمكره. وقد يتغابى ويعمل ما يريده المتداهي عليه لأنه أدرك

مرمي كلامه وفهم ما فيه من صواب، كما صنع مع عمرو بن العاص في خطبة أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهما. وسيأتي الكلام عنها في فصل تالٍ.

على أنَّ القدرة الذهنية التي امتاز بها عمر في غنًي عن الاستدلال عليها بما قال، وما قيل فيه، وما دار بينه وبين بعض القوم من المساجلات والمحاورات. وأنه عمل ما لم يعمله إلا القليل من أقدر الحكام في تاريخ بني الإنسان، وكفي بذلك دليلًا على قدرته الذهنية لا حاجة بعده إلى دليل: ساس شعوبًا بينها من اختلاف مثل ما بين العرب والفرس وبين الفرس والقبط والسوريين، ونصب ولاة وانتدب قوادًا وسيَّر بعوثًا وأشرف على ميادين قتال وأقام نظمًا في الحكومة وراقب رعاة ورعية فيما يعلنون وما يبطنون ونجح في كلِّ ما عمل نجاحًا منقطع النظير غير مردود إلى المصادفة ولا إلى ارتجال المغامرين، وليس هذا كلُّه مما يضطلع به رجل محدود الفكر ضيق الأفق قليل الخبرة بالجماعات والأفراد. فإذا استوفي هذا الحظ الوافي من القدرة الذهنية، فذلك حَسبه منها، وحسب كل من تصدى لمثل عمله ونهض بمثل وقره. ولا عليه بعد ذلك أنه لم يفكِّر على نمطِ الفلاسفة وأقطاب العلم وأساطين المنطق والرياضة، فإن الدنيا لم تخرج لنا عمَر لتزيدنا أفلاطون آخرَ أو إقليدس ثانيًا أو (فاراداي) سابقًا في الزمن القديم، بل أخرجته للناس ليكون مؤسِّس عهد ومحوِّل تاريخ. فإذا تأدَّى به عقله إلى تلك الغاية فهو العقل الصائب يفكر على النحو الذي خلق له ويبلغ القصد

الذي رمي إليه. وعلينا نحن أن نعرف كيف كان تفكيرُه وأن نسلكه بين قرنائه وأنداده.

إنَّما طرأت شبهة العَقل المحدود على المستشرقين الذين ظنوا به هذا الظن من ناحية واحدةٍ، وهي ناحية العدل الذي لا يتلفَّت ذات اليمين وذات الشمال، والقضاء الذي يكيل الجزاء دقة بدقة ولا يبالي بالنقائض والمفارقات..

ونظروا إلى جملة آرائه في المسائل الجلى فإذا هي من الآراء التي يغلب عليها القطع والجزم والانطلاق إلى غرض مائل لا تنحرف عنه قيد شعرة. كأنه قد جهل ما في الدنيا من نقائض وخفايا ومن عوج وتعريج، أو كأنه السَّهم الثاقب ينفذ فيما أمامه إلى هدفه المحدود ولا يلتفت إلى شيء في نفاذه أو يعوقه عائق دونه..

فخطر لهم أن فطنته إنما كانت فطنة فراسة فطرية كالغريزة التي تهتدي على استقامة واحدةٍ، ولكنها لا تنحرف ولا تنصرف ولا تخالف ما جبلت عليه.. وإنها فطنة العقل المحدود، والصَّبر الموكل بجانب واحد ينفذ فيه ولا يحيط به أو يتشعَّب في نواحيه.

والفكر المحدود هنا هو فكر أولئك المستشرقين لا فكر عمر بن الخطاب.

فالرجل الذي يستقيم على وجه واحد لا يحيد عنه، هو واحد من رجلين:

فإمَّا رجل يستقيم على هذا الوجه؛ لأنه لا يرى غيره، ولا يحيط بما حوله.

وإمَّا رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه قادر على اختراق العقبات عالم أنها تنثني إليه حيث كان دون أن يثني إليها حيث كانت.

واستقامة عمر بن الخطاب على وجهه من هذا القبيل وليست من ذلك القبيل:

هي استقامة قدرة وليست باستقامة عَجز، وهي استقامة تصرف سريع وليست باستقامة محجور مقيد، يأبى أن يدور لأنه قد أعياه أن يدور.

هي استقامة حياة غلابة، وليست باستقامة أداة كالموازين تسوِّي بين التبر والتراب لأنها لا تميز بين التبر والتراب.

فالرجل الذي يجتنب التصرف في العدل، عجزًا عن الفهم والتزامًا للحرف المكتوب، ونزولًا إلى مرتبة الموازين التي لا تعي ولا تغضب ولا تغار إنَّما هو آلة فقيرةٌ في مادَّةِ الحياة.

أما الذي يجتنب التصرف في العدل غيرة على الضعيف وقدرة على القوي، وعلمًا بالتبعة واضطلاعًا بجرائرها، فذلك حيٌّ غنيٌّ بالحياة يعدل لفرط السليقة الإنسانية والقدرة الحيوية، ولا يعدل لأنه آلة تشبه الميزان الذي لا حسّ فيه..

وشتَّان بين هذا وذاك.. أنهما لنقيضان وإن كانا في ظاهر الأمر شبيهين متقاربين..

والاعتماد على الأمثلة الخاصة أولى بنا في هذا المعرض من الاعتماد على القواعد العامة والتقريرات النظرية.

obeikandi.com

فهذه أمثلة ثلاثة من أمثلة العدل الذي يبدو لأوَّل وهلة كأنه عدل الموازين الآلية حين تسوي بين الأوزان وإن اختلفت القيم والأقدار، وتفصل في الأنصباء[١] بغير نظر إلى فوارق الدنيا ومقتضيات السياسة وتبدل الأحوال. ونختارها من أجهر الأمثلة وأدناها إلى تأييد شبهات المستشرقين فيما زعموه من العقل المحدود. لنرى على قدر ضخامة هذه الأمثلة ضخامة الخطأ في استخراج ما تدل عليه. .

كان عمرو بن العاص واليًا لمصر وكان ابنه يجري الخيل في ميدان السباق، فنازعه بعض المصريين السبق واختلفا بينهما لمن يكون الفرس السابق. وغضب ابن الوالي فضرب المصريَّ وهو يقول: أنا ابن الأكرمين، فاستدعي عمر الوالي وابنه حين رفع إليه المصري أمره، ونادى بالمصريِّ في جمع من الناس أن يضرب خصمه قائلًا له: اضرب ابن الأكرمين!. ثمَّ أمره أن يضرب الوالي لأن ابنه لم يجرؤ على ضرب الناس إلا بسلطانه، وصاح بالوالي مغضبًا: بِمَ استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟

فما نجا من يده إلا برضي من صاحب الشكوى واعتذار مقبول.

وكان خالد بن الوليد أشهر قادة الإسلام في زمانه فأحصى عليه عمر بعض المآخذ ومنها إنفاقه من بيت المال في غير ما يرضاه فأمر به أن يحاكم في مجلس عام كما يحاكم أصغر الجند وعزله بعد مقاسمته فيما يملك من نقد ومتاع.

---

(١) جمع نصيب.

وكان جبلة بن الأيهم أميرًا نصرانيًّا فأسلم وأسلمت معه طائفة من قومه. ثم وطئ أعرابي إزاره فلطمه جبلة على ملأ من حجاج بيت الله فقضي عمر للأعرابيِّ أن يلطم الأمير على ذلك الملأ؛ لأن الإسلام لا يفرِّق بين سوقة وأمير.

هذه أمثلة العدل الذي لا يتصرَّف ولا يلتفت إلى الدنيا وما فيها من فوارق وتعريجات تتأبى على القصاص المستقيم، وهي من أقوى الشبهات على النظر المحدود في تقدير الجزاءِ بالحرفِ المكتوب، دون التفاوت إلى الأحوال والمقتضيات..

فهل هي في الواقع كذلك؟. وهل كان على عُمَر أن (يتصرَّف) في هذه الأقضية بلباقة الساسة الدُّهاة في جميع الأزمانِ إذ يحتالون على حرف الشريعة ويدورون حول حدود القانون؟

نعم كان عليه ذلك لو عجز عن سنَّة المساواة واحتاج إلى الحيلة. . فإنَّما يعاب على الوالي عدل الموازين ويحمد منه التصرُّف والدوران لأنَّ المساواة تعييه، أو لأنَّ المساواة تعرضه لعاقبة شرٍّ وأظلم من الإجحاف، فإذا نظر إلى عاقبة المساواة في المعاملة فرآها شرًّا وأظلم من عاقبه التفرقة والتمييز فقد وجب عليه إذًا أن يدور حول الحقيقة وألا يواجهها نصًّا بغير انحراف.

ولكن أين هذا من عمر وأين عمر من هذا؟. . أنه كان قويًّا قادرًا على العواقب، وكان شديدَ الألم من ظلم الظَّالم شديد الخجل من خذلان المظلوم، وكان وثيقَ الإيمان بنصر الله في الحقِّ وفي النجدة. فلماذا ينحرف؟ ولماذا يتصرَّف؟ ولماذا يدور؟

كان قويًّا بطبعه قويًّا بإيمانه، فلماذا يهاب قويًّا جار على ضعيف؟ ولماذا يروغ من صرامةِ القاضي إلى دهاءِ السياسي الذي يدور حول الحقوق والحدود؟

للمستشرقين المحدثين بالتفكير المحدود أن يأخذوا عليه تشهيره بكبار الولاة ويثبتوا به كلّ ما قالوا عن ذلك التفكير المحدود الذي ينسى الفوارق ولا يحتال على المحظور أضعاف ما كان واقعًا لو بطلت المساواة بين السوقة والولاة.

أمَّا أن يكون ابن العاص ونظراؤه لا يثورون، ويعلمون من هو عمر، وما هي عقباهم إذا ثاروا عليه.

وأما أن يكون عمر لا يخشي تلك الثورة ولا يعي بها إذا هي فاجأته أو جاءته على انتظار.

وأمَّا أن يكون الأمر في ضميره وفي ضمائرهم يجري على البديهة التي لا خفاء بها ولا شكَّ فيها، فكيف يقال إذًا أن تفكير عمر في قصاص الولاة كبارًا وصغارًا تفكير محدود؟ وأين هو في هذه الحالة موضع التفكير المحدود؟

إنه في موضع واحدٍ، وهو كما أسلفنا موضع الناقد الذي يصف عمر بغير وصفه، لأنه هو محدود الفكر في قياس الرجالِ بمقياس واحدٍ، أو في اعتقاده أن الخطوب تبقي كما هي ولا تتغيَّر كلما تغيَّرت عليها أيدي الرجال.

لقد كان عمرو بن العاص خطرًا على الخليفة الذي يغضُّ منه لو كان غير عمر، ولكنَّه هو والذين كانوا أجرأ منه على الفتكِ وأسرع منه

إلى الغضب لم يكن لهم من خطرٍ إذا كان عمر هو الذي أمر بالعزل وهو الذي قضي بالقصاص.

فأجرأ منه لا ريبَ كان خالد بن الوليد، وأشهر منه بين سيوف الإسلام لو عمد إلى السيف. ومع هذا نقم خالد عزلَه فخطب الناس ومضي يقول: ((إن أمير المؤمنين استعملني على الشَّام حتى إذا كانت بثنية- أي حنطة- وعسلًا عزلني وآثر بها غيري))، فما أتمها حتى نهض له رجل من السامعين فقال له: صبرًا أيها الأمير فإنها الفتنة، فما تردَّد خالد أن قال: أمَا وابن الخطَّاب حيٌّ فلا. .

نعم، لا فتنة وابن الخطاب حيٌّ ولو كان الغاضب خالدًا الغضوب، ومن هنا حقّ له أن يشكو ولا جناح عليه.

وأطرف من هذا في هيبة عمر بين ولاته وقوَّاده أن كتب إلى أبي عبيدة يأمره أن يقاسم خالدًا ماله نصفَيْن. فقاسمه جميع ماله حتى بقيت نعلاه، فقال أبو عبيدة: إن هذا لا يصلح إلا بهذا. فأبي خالد أن يخالف أمر عمر وأعطاه إحداهما وأخذ الأخرى.

لقد نظرنا إلى عمر مستقيمًا ولم ننظر إلى الخطوب، ولو نظرنا إليها رأينا أنها انثنت لتنقاد له وتتقي مصادمته وتستقيم على مناهجه. فعلمنا لم استقام دون أن يقدح ذلك في صدق نظره إلى الدنيا وصدق فراسته في خلائق الناس..

وندع قضايا الولاة وننظر في قضية الأمير الذي أرتد عن الإسلام هو وقومه لأنَّ عمر أجبره على قصاص المساواة بينه وبين رجل من

السوقة. فماذا كان ينبغي أن يفعل عمر فيه ما فعل من المساواة الصادقة بين الأمير الضارب وخصمه المضروب؟

لعلَّ داهية من دهاة السياسة الذين يصفون أنفسهم بالنظر البعيد كان يؤثر إرضاء الأمير واستبقاء أتباعه في الإسلام والاحتيال على الشاكي بما يواسيه ويغنيه عن أن يسوِّي بين الخصمَين، ويمكن لضعيف من ضرب أمير اعتدى عليه..

فهل معني ذلك أن عمر كان يعوزه دهاء أولئك الساسة وما عندهم من بعد نظر مزعوم؟

كلا. بل معناه أن أولئك الساسة يعوزهم السخط على الظلم والغيرة على الحق واليقين بالقدرة والإيمان بمناعة الإسلام أن يصيبه غضب أمير صابئ بما يضره، ولو كثر أتباعه والصابئون فر ركابه.

معناه أنهم احتاجوا إلى التصرف وعمر لم يحتج إليه.

وها هي ذي السنون قد مضت وتلتها الأحقاب والقرون فبدا لنا اليوم أنَّ النظر البعيد والعدل الشديد في هذه القضية يلتقيانِ، وأنَّ عمر كان أحسنَ المتصرِّفين فيها لأنه اجتنب التصرُّف الذي يهواه الدُّهاة، فقد أفاد الإسلام ما لم يُفِدْ بقاء جبلَة وأتباعه على دينه، ووقاه ضررًا أضخم وأوخم من نكوص أولئك الصابئين عنه: أفاده ثقة أهله بإقامة أحكامه واطمئنان الضعفاء إلى كنفهِ ورهبة الأقوياء من بأسهِ، وسمعته في الدنيا برعاية الحقِّ وإنجازِ الوَعْدِ وتصديق معني الدِّين، ولا معني له إن كان أضعف بأسًا من أمير وجب العقاب عليه.

obeikandl.com

ويجوز أن الفاروق لم ينظر إلى عواقب القرون كما ننظر إليها الآن، بعد أن برزت من حيِّز الفرض إلى حيِّز العيان. . غير أنَّ الأمير الذي لا يجوز في اعتقادنا أنه عدل في قضية جبلة ونظائرها عدل آلةٍ أو عدل ميزان. إن الميزان لأقلُّ من مخلوق له حياة، أما الفاروق في هذه القضية فقد كان أكبر من الحياة الفانية، كان بطلًا يؤمن ويعمل بإيمانه، وهكذا يعلو الإنسان ببطولة الإيمان.

والعبرة التي نخرج بها من هذا أنَّ النظرة الأولى في أخلاق عمر ابن الخطاب حسنة ولكن النظرة الثانية هي على الأغلب الأعم أحسن من الأولى.

فالناقدون الأوربيون الذين فسَّروا عدله المستقيم القاطع بالنظر الضيق والفكر المحدَّد لم يفهموه وينصفوه، ولو فهموه وأنصفوه لعلموا أن عدله المستقيم القاطع زيادة في القدرة وليس بنقص في الفطنة، أو أنه زيادة في قوة الثقة وقوة الإيمان وليس بنقص في العلم والبداهة، ولم يكن عسيرًا عليهم أن يفقهوا ذلك لو رجعوا أنفسهم وتريثوا في حكمهم، لأنَّ قوَّة الثقة وقوَّة الإيمان لا تخفيان في خلق من أخلاقه ولا عمل من أعماله. ولا تزالان ممزوجتين فيه كلَّ إقدام وبكلِّ إحجام فكان يقدم على أعظم الخطوب ويحجم عن أهون الهيئات تحرُّجًا منها وتنزُّهًا عنها، إذا اقتضي ذلك وازع من قوة الإيمان..

فلم يكن يمضي قدمًا لأنه يغفل عمَّا حوله من النواتئ والمنعرجات والسُّدود، بل كان يمضي بينها قدمًا لأنه لا يباليها ويؤمن أصدق الإيمان أنها تنثني له إذا مضي فيها، فلا حاجة به أن ينثني إليها.

إنه ليرفع العبءَ إلى كاهله وهو قائم لا يطأطئُ للنُّهوض به، فليس الفارق بينه وبين غيره أنه جهل العبءَ الذي يعرفونه، أو ينسي العواقب التي يذكرونها، أو يتحلَّل من المصاعب التي يتحرَّجون منها. . كلا!. إنَّما الفرق بينه وبينهم أنهم ينثنون للخطوب، وإن الخطوب هي التي تنثني إليه.

هذه القوة في إيمانه كانت هي المسيطر الأكبر على كل خلق من أخلاقه، وكل رأي من آرائه، بل كانت هي المسيطر الأكبر على ما هو أصعب مقادًا من الأخلاق والآراء، وأشد عرامًا من العقائد والشبهات، وهي دوافع الطبع وسورات الغريزة، وقلَّما خلا منها طبع قوي عزوف غيور.

فالأفكار والأخلاق جانبان من جوانب النفس الإنسانية قابلان للضوابط والقيود، ولكن ما القول في الدوافع والسَّورات؟

مثل الفكر كمثل السفينة الطافية على وجه النَّهر، لها شراع ولها سكان، وعليهما معًا رقيب من النواتية والربَّان.

ومثل الخلق كمثل النهر المندفع تحسُّه الشواطئ والقناطر ويفيض في موعدٍ ويعرف له مجرى، ويحسب له مقدار.

ولكن ما القول في السَّيل العرم؟

ما القول في السورة الجامحة التي ليست بفكر يسوس ويساس، ولا بخلق متميز بسماته وخصائصه ومراميه؟

هنا تبدو لنا قوة الضوابط والقيود.

وهنا أيضًا كانت ضوابط الإيمان القوي في نفس عمر كأقوى ما تكون.

ولا أحسب أن قلبه الكبير جمحت به في الجاهلية أو الإسلام سورة أكبر من سورته يوم نُعِيَ النبيُّ إلى المسلمين، فأنكر أن يُنعى وأبى أن يسمع صوتًا بين المسلمين يزعم أنَّ محمدًا قد مات. وصاح والناس في رهبة من كرهبتهم من شبح الموت المخيم يومئذٍ على الرؤوس: ((والله إني لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات)).

ثمَّ أقبل أبو بكر من مسكنه على فرسه، فنزل فتمشي وئيدًا صامتًا لا يكلِّم أحدًا، وتيمَّمَ النبيَّ وهو مغشيٌّ بالثوب، فكشفَ عن وجهه ثمَّ أكبَّ عليه وقبَّله، وبكى.

ثمَّ أحسَّ صولةَ عمر وهو يكلِّم الناس، فخرج إليهم فقال: اجلس يا عمر!. وأقبل على المسلمين يكلمهم بكلام السماء: ((أما بعد، فمن كان يعبد محمَّدًا، فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت. و(ما محمدًا إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين)).

فأهوى عمر إلى الأرض وأناب.

وكأنه والمسلمين معه ما علموا أن أنزلت هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر تلك الساعة.

يا لروعة الشلَّال الزاخر!.

ويا لروعة السابح القاهر الذي لوى به ليًّا كأنما قبض منه على عرف، وأخذ له بعنان!. .

أكبر ميدان من ميادين الدنيا لا يرينا صراعًا عاتيًا هو أولى بالروعة من نفس عمر وهي متراوحة بين شعوره الزاخر وإيمانه الوثيق.

لحظة هائلة من أهوال ما تحس النفوس، ثم انهزام كأسرع ما يكون الانهزام، وانتصار كأسرع ما يكون الانتصار، وغاشية تتجلي عن صاحب تلك النفس وهو مالك لزمامهِ، ماضٍ بشعوره إلى حيث يمضي به إيمانه، فهما قوتان غالبتان، وليستا بعد بالعسكرين المتغالبين.

لقد كانت تلك سورته الكبرى، ولكنها لم تكن أولى سوراته ولا أخراها.

فقد عهدت هذه السورات في طبعه حتى عرف من عهدوها كيف يسوسونها ويتَّقونها، وأوشكَتْ أن تُحسب في عداد الأنهار المحكومة لا في عداد السُّيول الجارفة انطلقت من عقالها.

ذهب إليه بلال مستأذِنًا فقال له الخادم إنَّه نائِم، فسأله: كيف تجدون عمر؟. قال: خير الناس إلَّا أنه غضب فهو أمر عظيم. قال بلال: لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه!.

فهو الإيمان ضابط كل شيء في تلك النفس حتى السورات التي ليس لها ضابط في النفوس.

أو قل إنها هي النفس القوية في دفعاتها وفي ضوابطها على السواء.

وربَّ نفس من ضعف الدفعة بحيث يقمعها أهون ضابط يسيطر عليها، فأمَّا الدفعة التي لا يقف في طريقها إلا ضابط أقوى منها فتلك هي الطبيعة الحيوية المضاعَفَة، وليست هي الضَّعف الذي يتراجع لأهون مراجعة.

نَذكر هذا وينبغي أن نذكره ولا نتساهنَّ لأن الفرق بين الإيمان الذي يكبح الهزيل المنزوف الحياة وبين الإيمان الذي يكبح القويَّ الجياش فرق عظيم..

ولم يكن عمر مُعرضًا عن زخارف الحياة لهزالٍ كان في دواعي الحياة فيه. وإنَّما كان معرضًا عنها لأنه كان قادرًا على الإعراض غير ممتحن به في إرادة ولا عزيمة.

وكان معرضًا عنها لأنه صاحب حيوية غير الحيوية الجسدية الموكلة بالسرور والمتاع.

فمن الواجب إذا ذكرنا الحيوية وضعفها وقوَّتها أن نذكر أبدًا أنها حيويات متعدِّدة وليست بحيوية واحدةٍ.

حيوية الروح، وحيوية الخلق، وحيوية الذوق، وحيوية العقل، وحيوية الجسد، وغير ذلك مما يتداخل بين هذه الحيويات.

فليس من الضروري إذا رأيت رجلًا قليل الاشتهاء لمتعة الأجساد أن تحكم عليه بضعف الحيوية، فربَّما كانت له حيوية أخرى تملأ ألوفًا من النفوس لا تجد متاعها في أكلةٍ أو شهوةٍ وتجد المتاع خير المتاع في إحقاق الحقِّ، وزجر الطغيان، وإقامة العَدلِ والشريعة بين الناس.

وهكذا كانت حيوية عمر فيما يريدُه وفيما يزهَدُ فيه.

لم تكن قلَّة الرغبة في زخارف الدنيا هي مقياس حيويته العظمي وإنَّما كان مقياس تلك الحيوية عظم الرغبة في الإصلاح والتقويم، وفي إجراء ما ينبغي أن يجري، وغير مبالٍ ما يكلِّفه ذلك من جهدٍ تتضاءل دونه جهود الألوف من الموكَّلين بمتاع الأجسَاد.

تلك صورة مجملَة للصفات الخلقية الكبيرة التي كانت غالبةً على نفس عمر بن الخطاب، وهي العدل، والرحمة، والغيرة، والفطنة، والإيمان..

وأول ما يلاحظ عليها تعدد الصفات الغالبة في نفس واحدة، وصفة واحدة منها قد تغلب على النفس- وليست بصغيرة- فتنعتها بنعتها وتستأثر بتمييزها والدلالة عليها.

ثم يلاحظ عليها أن الصفة منها تتصل بعمر بن الخطاب فتأخذ منه وتصطبغ بصبغته، حتى كأنها لم تعهد في غيره على شيوعها وكثرة الموسومين بسماتها. .

إلا أن هذا وذاك ليس بأعجب الملاحظات ولا أندرها في هذا السياق، وإنما العجب العجاب حقًّا هذا التركيب الذي ندر مثليه جدًّا بين خصائص النفوس كائنًا ما كان نصيب صاحبها من العظمة والامتياز.

وأحرى بنا أن نقول ((هذه التركيبة)) ولا نقول هذا التركيب، لأن صفاته الكبيرة تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذي ينفع لغرض

obeikandi.com

واحد مفهوم، والذي ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط.

إذا نظرت إلى تلك الصفات أجزاء متفرقات فهي سهلة بسيطة ليس فيها شيء عويص أو مكتنف بغموض. .

ولكنك تنظر إليها مركبة متناسقة فيبدو لك منها جانب الدهشة والأعجاز، أو جانب الندرة التي يعزُّ تكرارها في طبائع النفوس، لأنَّها تتركَّب لاستيفاءِ الغرض منها جميعًا واستيفاءِ الغرض في كلٍّ منها على حدَةٍ، وهذا هو النَّادر جدَّ الندرة في تركيب الأخلاق..

ما العدل مثلًا بغير الرحمة التي تمزجه بالإحسان؟. وما العدل والرحمة معًا بغير الحماسة الروحية والغيرة اليقظى التي تجعل كراهة المرء الظلم كأنها كراهة الضرر الذي يصيبه في نفسه وآله، وتجعل حبَّه للعدل كأنه حبّ هواه وقبلة مناه؟ وما العدل والرحمة والغيرة جميعًا بغير فطنة تضع الأمور في مواضعها وتعصم المرء أن ينخدع لمن لا يستحق ويغفل عمن يستحق وهو حسن القصد غير معتم الضمير؟. وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الإيمان الذي هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع، والمرجع الذي لا مرجع بعده لطالب الإنصاف؟

كل صفة تتمَّة لجميع الصفات.

وكلُّ الصفات روافد لغرض واحدٍ يتمُّ به نصر الحقِّ وخذلان الباطل.

وكلُّ خليقة فهي جزء لا ينفصل من هذه (التركيبة) التي اتفقت أحسن اتفاق وأنفع اتفاق، وكأنما اتفقت لتصبح كل خليقة منها أتم قدرتها في بلوغ كمالها وتحقيق غايتها. .

فلا نقص في العدل كالنقص في كلِّ عَدل يعمي عن الطبيعة البشرية ويذهل عن ضعف الإنسان..

ولا نقص في الرحمة كالنقص في كل رحمة تجور مع الهوى، ولا تدين بالمساواة..

ولا نقص في الغيرة كالنقص في كلِّ غيرةٍ ظالمةٍ قاسيةٍ كأنها ضراوة وحش وليست بحماسة روح..

ولا نقص في أولئك كله، كالنقص في جميع الصفات بغير الفطنة التي تخرج بها من ظلام إلى نورٍ، وبغَير الإيمان منها موقف الحارس السَّاهر والرقيب الأمين.

صفات متراكبة كأنها صفة واحدَة يأخذ بعضها من بعض فلا تتعدَّد في مرآها، ولا تزال في صورة البساطة بعيدةً عن التركيب، فيخطئ النظر القصير في التفرقة بين هذه الظاهرة النفسية الرائعة وبين ظاهرة الشَّيءِ البسيط المحدُودِ، وإنَّه لخطأ شائع ينسَاقُ إليه كثيرون ممن يستهلُّون بساطَةَ عمر، وهي أولى بالرَّوعة عن تركيب يختلط من كلِّ مزيج، ثمَّ يزيد في الألوان ولا يزيد في الإتمام والتوحيدِ والإتقان.

ولو أن مخترعًا من أهل القصص حاول أن يخترع سيرة عمر بن الخطاب لأعياه أن يخترع ذلك الشتيت المتفرق من الأخبار والأحاديث والنوادر ليقرأ القارئ بعد ذلك، فيقبل منه ما يقبل، ويسقط منه ما

يسقط، ثمَّ يبقي منه ما يدلّ أصدق الدلالة على كل صفة من تلك الصفات.

فلا اختراع في جملة أخبار عمر وإن جاز الشك في بعضها أو جاز إسقاط الكثير منها، ومن شاء فليشك في هذا الخبر أو ذاك ما بدا له الشك وليسقط منها ما بدا له الإسقاط، فسيبقي بعد ذلك جميعه خبر يدلُّ على عدله ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدلُّ على رحمته ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدلُّ على غيرته ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدلُّ على فطنته ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدلُّ على إيمانه ولا سبيل إلى نقضه، ويبقي ذلك التركيب العجيب الذي هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل في مصادر الأخبار . .

هذه هي المعضلة التي عنيناها حين قلنا في صدر هذا الفصل أن سهولة عمر وخلوَّ طبائعه من التعقيد والغموض وهي سهولة أصعب من الصعوبة، لأنها تنتهي بك إلى صعوبة التركيبة التي هي أندر من التعقيد والغموض، وتربك عناصر شتى قد تتناقض في غير هذا التركيب ولكنها هنا لا تتناقض في شيء ذي بال، لأن التناقض أن يذهب كل عنصر في وجهة معارضة لسائر الوجهات، فأما أن تكون كلها ذاهبة في وجهة واحدة فذلك عنصر واحد متعدِّد الأجزاء والألوان. ولهذا كانت دراسة عمر غنيمة لكلِّ علم يتَّصل بالحياة الإنسانية كعلم الأخلاقِ، وعلم الاجتماع، وعلم السِّياسة. ولم تقتصر مزايَا هذه الدراسة على علم النفس وكفى. . لأنَّ كلَّ نفس صغرت أو كبرت فهي إنسان يضيف العلم به إلى علم النفس بعض الإضافة..

ولكن ليست كلُّ النفوس بالنَّفس التي تصحِّح أوهام الواهمين في فضائل الأخلاق وفضائل الاجتماع، وفي القدوة المثلي التي يقتدي بها طلَّاب الرِّفعة والسيادة.

ونحن في عصر شاعت فيه فلسفات مسهبة تنكر الرحمة والعدل على الأقوياء الغيورين، وتحسبهما حيلَةً من حيل الطبع في خلائق الضعفاء لاستدامة البقاء.. كأن رحمة الضعيف تنفعه إذا رحم، وكأن عدل الضعيف ينفعه إذا عدل، أو كأن القوي يخلق نفسه لنفسه ولا يخلق قويًا لتفيد قوَّته فائدتها في خدمة المحتاجين إليها.

فعمر ذو البأس والعدل، وعمر ذو الرحمة والغيرة: أصدق تفنيد لذلك الوهم الأخرق البليد. إذ كانت رحمته وعدله لا يتناقضان البأس والغيرة فيه، بل كان بأسه معوانًا لرحمته وكانت معوانًا لعدله. وكان هو قويًّا لينتفع الناس بقوَّته، ولم يكن قويًا ليطغي بقوته على الضعفاء.

ولِمَ يكون لزامًا أن يقسو ذو البأس ولا يرحم؟

ألا يقسو الضعيف؟. فلم العجب إذًا من حرمة القويِّ؟ كل ما هنالك أن رحمة الضعفاء غير رحمة الأقوياء. فأمَّا العقل الذي يرى الرحمة غريبةً في الأقوياء، ويرى القسوةَ غريبةً في الضُّعفاء فهو يرى غير الواقع من هؤلاء وهؤلاء. إذ الواقع في الدنيا أن القسوة لا تدلُّ على القوة، وأنَّ الرحمة لا تدلُّ على الضعف، وأن ليس في الدنيا أقسي من الأطفال وهم أضعف من فيها من الضعفاء.

وبغير إمعان طويل في دقائق النفس الإنسانية، استطاعت امرأة محزونة أن تفرِّق بين الخصلتين وتجمع بينهما معًا في عمر بن الخطاب، ونعني بها عاتكة بنت زيد حين قالت في رثائه:

رؤوف على الأدنى غليظ على العدى ... أخي ثقةٍ في النائبات منيبِ

وهي تفرقةٌ سهلة ولكنَّها صادقة جامعة، فغير عجيب أن يكون إنسان كذلك، وإنَّما هو أوفق شيءٍ لطبائع الأشياء..